ذكـــــريـــــــات ونـقـــــــاش

(عفـك) والـــــرفـيـقـــان ديـمـتـروف.. وعلي بـــــدر

باسم عبد الحميد حمودي

اطلعت -بالصدفة- على واحد من المواقع الالكترونية الذي قام بنشر مقالة للروائي علي بدر بعنوان (نساء عفج والرفيق ديمتروف) تحدث فيها عن حضوره ندوة (قبل مايس ٢٠٠٦) في اسبانيا عن شؤون العراق كان فيها هو العراقي بين باحثين اوربيين وامريكيين.

تقول المقالة ان العقلية الغربية تفكر على نحو مختلف عن العقلية العراقية، فقد تحدث هؤلاء -بالوقائع والارقام- عن بنية اخرى للفكر العراقي، عن التحديث والتطوير وفق المفهوم الغربي فيما تحدث الاستاذ علي بدر عن المسلمات العراقية التي تماهي التوجهات التحديثية ولكنها لا تزال تعيش القرون الاولى، وبذلك فان التوجهات (الديمقراطية) العراقية (الظاهرة للسطح) عراقياً انما هي قشرة خارجية.

ويضرب علي بدر مثلاً (اجده بائساً) عن التوجهات الديمقراطية للعراقيين في الخمسينيات والستينيات بقوله ان النازيين اعتقلوا الرفيق ديمتروف وحاكموه بتهمة حرق الرايخستاغ (مجلس الامة الالماني)، وهي تهمة باطلة طبعاً احتج عليها الملايين من كل بلد، وكان منها (والكلام لعلي بدر) برقية من نساء (عفج) نشرت في الصحف البغدادية تقول ان نساء (عفج) يقدمن احتجاجهن واستنكارهن لمحاكمة الرفيق ديمتروف.

ويعلق علي بدر على هذه البرقية انها ثقافة مظهرية ليس في ممثليها العراقيين الذين قدمهم علي بدر سوى القشور.

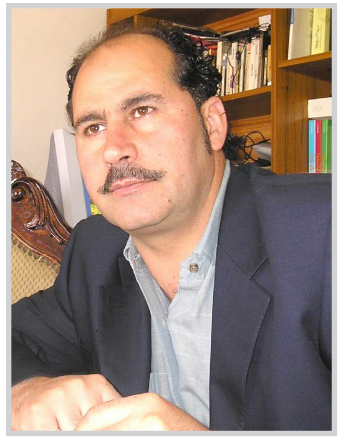
علي بدر

هذا الموقف البدري ينسجم مع التوجهات الثقافية للاستاذ علي بدر الذي يعتقد ان الثقافة العراقية عموماً لا تكشف عن قضية وانها فورات تقليد لاوربا وان هذا التقليد كان محكوماً بالعشيرة والاسرة والقيم والتقليدية وبذلك فان برقية نساء (عفج) المزعومة تنسجم مع الكذبة الديمقراطية بل هي دليل عليها، اذ صدرت هذه البرقية -والقول للرفيق بدر- من مجتمع مدينة متخلفة زارها الكاتب -كما يدعي- في التسعينيات فوجدها على حالها القديم.

يقينا هنا ان علي بدر - وهو روائي كبير حقاً- كان مخلصاً في طروحاته ولكنه كان مزيفاً وغير دقيق في استنتاجاته و(مثله).

وانا هنا اتحدث عن معايشة شخصية لهذه المدينة الجميلة الوادعة الواقعة على فرع نهر الدغارة المتنوع من الفرات فقد كنت في اربعينيات القرن العشرين طفلاً اعيش مع اسرتي في مدينة الشامية ايام ما كان والدي مديراً لمدرستها الابتدائية الوحيدة وكان المعلم الاستاذ هادي قوطي يعتبرني واحداً من اعز اولاده ويأخذني معه في العطل الربيعية والصيفية الى مدينته (عفك) الجميلة حيث اعيش مع ابناء عمومته واهله.

وقد ظلت علاقتي بـ(عفك) واهلها الكرام وطيدة مستمرة ازورها مراراً حتى بعد تخرجي في كلية التربية عام ١٩٦٠ .

وتشاء الاحداث السياسية -لا غيرها- ان انقل بامر الحاكم العسكري العام من وظيفتي كمدرس في ثانوية الصويرة الى امر مديرية معارف الديوانية سنة ١٩٦٤ بعد اعادتي الى الوظيفة فعينت مدرسا في ثانوية الدغارة التي تبعد شمال شرق الديوانية بـ١٧ كيلو متراً وعن عفك التي تقع جنوبها بضعف هذه المسافة وكانت (عفك) ولا تزال مركز قضاء تتبعه نواحي (الدغارة) و(ال برير) ثم انشئت ناحية (سومر) جنوب الدغارة في قرية (جلعة شخير) -تصغير اشخير- فتبعت عفك (القضاء) هي وناحية (نفر) بتشديد الفاء.

ونفر كما هو معروف مركز اثاري تاريخي سومري فيها الواح اول مكتبة عراقية ومنها المتصوف النفري وغيره ولكن كل ذلك تاريخ قديم وما نعنيه اليوم هو الواقع المعيش في عفك وانا اتحدث عن فترات الاربعينيات من القرن العشرين حتى يومنا هذا.

لا اريد التطويل هنا لكني اعرف ان عفك كانت مقراً للمنفيين السياسيين من شيوعيين وبارتيين وبعثيين وغيرهم وان تاجرها الرئيسي الحاج صلف كان يتعامل مع شركات اساسية في بغداد لتصدير الجلود ونبات (السوس) الطبي الى خارج العراق وان وجيهها الحاج عبد المحسن الجناحي كان واحداً من رجال المجتمع الديواني باسره وان السيد فخر الدين ممثل المرجع الديني الكبير المغفور له السيد محسن الحكيم كان يجمع مثقفي المدينة في بيته ليتبادلوا الاحاديث الفكرية والسياسية دون حرج ولا تكلف وقد حضرت مجلسه مراراً وناقشت ونوقشت وكان من الحضور ايامها الدكتور عبد الحسين مهدي الرحيم استاذ التاريخ في جامعة بغداد الان والاستاذ المرحوم عباس فرحان والاستاذ حبيب الحاج مهدي والشاعر المرحوم محمد البندر والاستاذ الدكتور الشهيد حاكم مالك الزيادي وغيرهم كثير.

وقد امرت السلطات ايامها بتسفير السيد فخر الدين العاملي من العراق الى بلده لبنان لانها لم تحتمل انفتاحه على المثقفين ولا ارادت خلط مفكر مسلم بمثقفين اخرين يملكون توجهات اخرى، وهذه واحدة كما يقولون.

وكنت خلال وجودي في الدغارة الحبيبة مدة تسع سنوات (١٩٦٥-١٩٧٣) ازور عفك مراراً ودائما، مرة لزيارة اهل زوجتي الذين كانوا يقيمون هناك فقد تويفي عميد الاسرة السيد عبود الجبوري كاتب اول محكمة عفك في الستينيات ودفن في النجف الاشرف وظلت اسرته في عفك وسط اهلها الطيبين سنوات طوالاً، وازورها كمدير لامتحانات الدراستين المتوسطة والاعدادية، ففي عفك وقراها الكثير من المدارس الابتدائية التي تضخ لمدرستها الثانوية المتكاملة وفي عفك الكثير من التاريخ الحي منذ ثورات عشائر عفك وحلجبة والدغارة على العثمانيين (يراجع لونكرك) وعلى سياسات الحكومة الملكية (يراجع تاريخ الوزارات العراقية).

ما اردت قوله ختاما ان اهل عفك يرتدون احذية القدم منذ عايشتهم في اربعينيات القرن الماضي اما السراويل فقد كان اجدادنا جميعاً لا يرتدونها بل يرتدون سراويل خارجية كثيفة وهذه الثانية.

اما الثالثة فان برقية نساء (عفج) - كما يوردها علي بدر- قد تكون مزورة وقد تكون غير موجودة وقد تكون لعبة من العاب السياسة شأنها شأن برقية (تسعيركم الشلغم اثلج صدورنا) والرابعة ان علي بدر لم يوفق في الاساءة الى مدينة انجبت كثيرين من العلماء والاساتذة والساسة وما زالت ديواناً مفتوحاً لكل عراقي.

اما الرابعة (مكرر) فهي نصيحة الى الاستاذ الصديق علي بدر ان يهتم بمشاريعه الروائية والسياحية المنتجة للشهرة وللمال وان يترك عفك لاهلها ولمن يحبها ويفهمها وكفانا رمياً لبئر العراق بالحجارة فالمحنة الطائفية ستزول يوماً يوم ينقشع الاحتلال وتصفو النفوس ويفهم الجميع ان القوى الخارجية هي التي تعبث بامن العراق واهله.. والله المستعان.

ضـــــــوء يـــــشـــبـــه المـــــــاء

غابريل غارسيا ماركيز
ترجمة: زعيم الطائي

بحلول أعياد الميلاد اشتدت مطالبة الولدين بزورق التجديف مرة اخرى.

- حسن (اجاب الأب) سنشتريه حال عودتنا الى قرطاجنة.

لكن (تاتو) ابن التاسعة و(خوليو) الذي مازال في السابعة، حملا فكرة مغايرة لما قرره الوالدان:

- كلا (اجابا بحدة وبصوت واحد) نحن نريده هنا والآن.

قالت امهما : بدءا حتى لو سلمنا بالأمر، فليست لدينا مياه كافية هنا غير ما يأتينا من دوش الحمام.

كانت محقة وزوجها كذلك، لأن بيتهما هناك في (قرطاجنة دي انديا) له ساحة واسعة مظللة، ومرسى صغير على الشاطئ يسع يختين كبيرين، اضافة الى ان الشقة التي حشروا فيها هنا في مدريد، الطابق الخامس رقم ٤٧ باسيو دي لاكاستيلا، تزدحم ازدحاما شديدا بعفشها وآثاثها. ورغم ذلك ففي النهاية لم يكن بوسعهما الرفض لانهما وعدا الولدين بزورق التجديف كاملا بكل لوازمه ومزودا بقنباص ومرقاب وآلة لقياس عمق الماء، ان هما اجتازا صفهما الاخير في الابتدائية، وبما ان كليهما قد نجحا بتفوق بما لايدع مجالا للتنصل عن الوعد الذي قطعاه، لذا فقد اضطر الوالد لشراء كل شيء دون ان يخبر زوجته التي كانت هي الاخرى عازفة عن الخوض في نقاش غير مجد حول الأمر، هكذا انتهى الموضوع باحضار قارب جميل من الألمنيوم وله خطوط ذهبية اللون على الجانبين لتحديد مقدار العمق فوق سطح الماء (القارب في الكراج) اعلن الوالد بعد اكمال الغداء، لكن المشكلة ان لامجال لنقله الى شقتهم عبر المصعد او السلالم وليس له متسع حتى في الكراج. على اية حال، عند ظهيرة السبت اللاحق، قام الولدان بدعوة رفاقهما في الصف لمساعدتهما في حمل الزورق الى الطوابق العليا،ودبرا له مكانا في غرفة الخدمة. قال الوالدان:

- تهانينا، وماذا بعد؟

اجاب الولدان :- لاشيء، كل ماكنا نريده ان يوضع في الصالة، وهاهو الآن فيها.

ليلة الاربعاء التالية غادر الوالدان الى السينما كعادتهما كل اسبوع، فكانت فرصة للصبيين ان يتصرفا وكأنهما يملكان المنزل. شرعا اولا باغلاق كل النوافذ والابواب، واخذا بتكسير بعض المصابيح تاركين شعراتها المتوهجة بالنور خصوصا في غرفة المعيشة، فبدأت تنبثق من تلك الفتائل ألوان كهربائية عديدة متفحمة بالسواد. بعد تغطيس رؤوسها بالماء الذي جعل يفور ويتناثر بعلو ثلاثة اقدام عند ربطه بالتيار. تناول كل منهما مجدافه، وراحا يبحران معا عبر جزر البيت الوهمية.

(هذه المغامرة الخرافية اتت نتيجة لملاحظات عابرة غير قابلة للتصديق كنت قد رويتها صدفة في واحد من فصول المواضيع الخيالية في درس الشعر، حينما سألني تاتو: لماذا يأتي الضياء فقط حين ملامستنا لمفتاح النور ولا يأتي من غيره، اجبته وقتها: الضوء كالماء ويمكن حصولنا على النور عند قيامنا بفتح صنبور الماء ايضا، قلت ذلك دون ان املك الشجاعة الكافية لاعادة التفكير في المسألة نفسها مرة اخرى).

وهكذا استمر الاثنان في الابحار مساء كل اربعاء وتعلما كيف يستعملان مرقاب النجوم والبوصلة، حتى اذا ماعاد الوالدان بعد خروجهما من دار العرض وجداهما يغطان في استسلام نوم ملائكي على ارضية الشقة اليابسة.

بعد مرور بضعة اشهر، ذهب بهما الامر بعيدا حيث اخذا يطالبان بجلب عدة غطس كاملة بضمنها البدلة الخارجية ، القناع والزعانف، اسطوانات غاز التنفس مع بندقية اطلاق هوائية للصيد تحت الاعماق.

احتج الوالد منتقدا: - شيء سخيف وغير مرض وضع قارب لايستعمله احد في غرفة المعيشة، والاسخف منه الحافكما بالسؤال عن عدة غوص ايضا.

قال خوليو: ماذا لو حققنا نجاحا باهرا في الفصل الاول هذا العام وحصلنا على ميدالية كاردينيا الذهبية؟

- كلا (قالت الام محذرة) هذا يكفي...

راح الوالد يلومها لابدائها موقفا متصلبا ازاءهما:- لحد الآن لم يحصل الصبيان على شيء مهم، ويكفي معاملتهما كأظفر مأن ينمو حتى نستأصله وننبذه.

قالت الام: - ولكنهما في هذه الحالة سوف يتماديان في الحصول على كل مايبغيانه حتى ولو كان كرسي الاستاذ نفسه.

في النهاية لم يتفوه الابوان بنعم او بلا، ولكن مع اطلالة شهر تموز حقق كل من تاتو وخوليو نجاحا رائعا في نيلهما جائزة كاردينيا الذهبية، مع شهادة تقديرية من ادارة المدرسة بعد نهاية الفصل الدراسي الاول.

في الظهيرة نفسها ودون ان يسألا ثانية او يطلبا شيئا، وجدا العدة المطلوبة بصناديقها التي تحتويها واغلفتها موضوعة في غرفة النوم.ولدا فما ان حل يوم الاربعاء التالي، واثناء مغادرة الوالدين الى دار السينما لحضور عرض (التانجو الاخير في باريس) حتى قاما باغراق المكان بعمق قامتين بالضوء وبدت الشقة كأنها تستحم في حمام ضوئي اشبه بسمكة قرش هائلة مروضة،اخذت تنساب بخفة في ذلك التوهج المائي وتسيل تحت ثنيات الافرشة وحواف الاغراض والاشياء المهملة الضائعة لعدة سنين بين الركام وظلام الأثاث الخلفي.

في احتفال نهاية العام، وبعد اجتياز مرحلتهما بنجاح وحصولهما على تقدير الفوز العالي، لم يطلبا شيئا ابدا، لأن الوالدين بادرا بالسؤال ان كانا يرغبان بشيء، اجابا بجدية بالغة انهما لايبغيان سوى القيام بدعوة اصدقاء صفهما المنتهي لوليمة صغيرة، لذا صدق الوالد حيث أسر لزوجته متباهيا وقد اشرق محياه:

- هذا دليل اكيد على نضجهما ، أ لم اقل لك.

- من فمك للسماء (قالت الام).

الاربعاء الاخرى بينما كان الوالدان يشاهدان فيلم (معركة الجزائر) لاحظ العابرون شلالا منهمرا من الشرر والضياء يتساقط على حافات البناية القديمة المختفية بين صفوف الاشجار في شارع (باسيو دي كاستالينا). كانت مساقط الشلالات الضوئية تنهمر فوق الشرفات وتصب في وابل غزير فوق واجهة المبنى المحاذي، وقد غمرت الشارع الواسع بسيل عارم من الاشعة الذهبية أنار سماء المدينة على طول الطريق المؤدي الى (جوادا راما)، مما استدعى حضور فرق الطوارئ والاطفاء الذين بادروا باقتحام باب الشقة عند الطابق الخامس؛ فهالهم انغمار المكان بهالات النور التي اخذت تفيض من فتحات اعالي السقوف، وقد وجدوا الأرائك والكراسي المغطاة بفراء جلد الفهد تعوم بمستويات ومناسيب مختلفة من النور الذائب، الداخل الى غرفة المعيشة بين مجاميع القناني المنتشرة حول البار جوار البيانو الضخم بغطائه المانيلا الشفاف وقد بدا غارقا الى منتصفه كأنه في عباءة فضفاضة من الشعاع الذهبي، كل المواضيع الشعرية الأليفة التي تضمنتها دروس الشعر والاحاسيس جعلت تطير بكامل اجنحتها الخيالية عبرسماء المطبخ، حتى الآلات الموسيقية للمارشات التي كان الصغار يرقصون على نغماتها بدت هي الاخرى عائمة خلال اللون الزاهي للأسماك الصغيرة التي تحررت توا من امهاتها في الاناء الزجاجي الكبير، كانت تلك هي الكائنات الوحيدة التي بقيت حية في هذا الحفل المبهج والمارشات التقليدية الشائعة، مجاميع فرش الاسنان العائدة لسكان الشقة ظهرت طافية داخل الحمام مع أكياس الواقيات الذكرية التي اعتاد الاب استعمالها، جسر الاسنان الاحتياطي وقوارير الكريمات التي تفضل الام اقتناءها، التلفاز سابحا مرتكزا على احد جانبيه وهو يطفو قرب السرير، ومازالت تعرض على شاشته باستمرار الحلقات الاخيرة من مسلسلات بعد منتصف الليل التي يمنع الاطفال من مشاهدتها. وفي نهاية الهول متحركا مع ميلان المجاذيف والسيل المنهمر، مرتديا قناعه وقليل من الهواء الذي يوصله الى أقرب ميناء، جلس تاتو الى مقود القارب مدققا في البحث عن فنار قريب، وخوليو يخوض امامه عند القيدوم منهمكا هو الآخر في العثور على نجمة الشمال القطبي بناظوره المقرب، سابحا في انحاء البيت مع السبعة والثلاثين طالبا من مرحلته، هائمين في لحظة وجد لاتنتهي حول حوض زهور الجيرانيوم، وقد شرعوا بترديد الاغاني التي يؤدونها في المدرسة، لكنهم راحوا يغيرون بعض الكلمات هنا وهناك لكي تتلاءم ولحظات المرح التي يعيشونها، فتناولوا المدير بقفشاتهم اللاذعة، مختلسين قدحا من البراندي من القنينة التي تركها الاب لكي يتغير التماع الضوء في تزامن تناوبي حتى يفيض منتشرا وذلقا في نفس الوقت داخل اطار الشقة. حضر طلاب صفي مرحلتهما في مدرسة سانت جوليان الثانوية باجمعهم ضيوفا عائمين وسط الطابق الخامس ٤٧ الباسو دي كاستالينا، في مدريد الاسبانية، المدينة المتارجحة بين حر الصيف المحرق وسياط رياح الجليد،حيث لانهر فيها ولااطلالة من محيط، المدينة التي لن يصدق احد من ابنائها البتة يوما بشيء اسمه علم الابحار داخل الضوء.

بـــدايـــات أدب المغتربين

٢ - قنديل أمّ هاشم

صلاح نيـــــازي

"قنديل أمّ هاشم"، معلمٌ بارز في الأدب العربي. قصةٌ آسرة. من آيات سحرها أنها تُرجمت إلى لغات مختلفة.

غرابتها أنها تتجدد مع كل قراءة. كأنّها كُتبت البارحة.

القصّة العربية الحديثة تجاوزتها فنّياً، مع ذلك لا تزال تتجدد بعنفوان. بالإضافة إلى ذلك ثمّة ثغرات بنائية، لا يمكن إساغتها في أية قصّة أخرى، إلاّ أنّها من عناصر قوتها.

تبدأ القصّة أوّلاً بزيارة القرية إلى المدينة. يظهر تباينهما على أشدّه، بممارسة طقس ديني تؤديه القرية، وتتعالى عليه المدينة.

القرية تتمثّل بالشيخ رجب عبد الله يوم كان صبياً. يزور مع رجال الأسرة، ونسائها مسجد السيدة زينب، و"يهوي على عتبته الرخامية بالقبلات"، مما يثير حفيظة رجال الدين، فيستعيذون "بالله من البدع والشرك"، أما أغلبية الشعب فتبتسم لسذاجة هؤلاء القرويين".

بهذه المقدمة التي تبدو عادية، صوّر يحيى حقي بفطنة، شرخاً حضارياً بين بيئتين بشريّتين، رغم أنهما يشتركان في بلد جغرافي واحد. هل سيتوسّع هذا الشرخ؟ هل سيلتئم؟

بهذه الحيلة الفنّية أثارالمؤلّف فضول القارئ، وتحرّقه.

نظراً لهذه النزعة الدينية، فإن الشيخ رجب عبد الله، حين هاجر إلى المدينة (القاهرة) طلباً للرزق، فإنّه اختار سَكَنَهُ بالقرب من المسجد. وحين نجح في متجره عزا ذلك إلى السيدة زينب.

دخل إسماعيل المدارس الأميرية. ولأنّ تربيته دينية، وينحدر من أصل قروي، فقد تفوّق على أقرانه أولاد "الأفندية" "المبتلين بالعجمة وعجز البيان". أمّا البيت فإنّه إن جلس للمذاكرة يرين فيه خشوع كامل. " حتى فاطمة النبويّة -بنت عمّه، اليتيمة أباً وأمّاً- تعلّمت كيف تكفّ عن ثرثرتها وتسكن أمامه في جلستها صامتة كأنها أمة، وهو سيدها. تعودت أن تسهر معه كأنّ الدرس درسها، تتطلّع إليه بعينيها المريضتين المحمرّتي الأجفان..."

بدر يحيى حقي حتى هذا الحدّ بذرتين مهمتين، وكأنهما سقطتا من بين أصابعه عفواً. الأولى بذرة التباين والاختلاف بين القرية والمدينة، والثانية: فاطمة النبوية، وقد منحها المؤلف صفات تقرّبها إلى النفس. هي أولاً بنت عمّه. يتيمة الأب والأم. تسهر معه. عيناها محمرّتا الأجفان. ما الذي ستكون عليه هذه العلاقة البريئة الحميمة؟ وهل سيكون جفناها المريضتان إحدى حبكات القصّة؟

أكبر الظنّ أنّ الكتّاب الموهوبين يجعلون الحوادث والأفكار كالبذور، تسقط من بين أصابعهم عفواً. ثم بعد سنوات تواجهها وقد أصبحت أشجاراً ملتفّة.

هكذا نشأ "إسماعيل في حراسة الله ثمّ أمّ هاشم (السيدة زينب) ".

كان إسماعيل يقطع المسافة المحدودة بين الحيّ والميدان بسرعة، ولكنّها تطول إذا سار إلى جانب النهر أو إذا وقف على الجسر. وبعد انفضاض الغرباء والزوار لا يسمع في هذه الحارة، سوى "تنفس خفي عميق، يجوب الميدان، لعلّه سيدي العتريس: بواب الست زينب".

حينما تلتفت إلى مصدر ذلك الشهيق والزفيرومصدره سيدي العتريس، ترى قبة. هي :"لألاء من نور يطوف بها. يضعف ويقوى كومضات مصباح يلاعبه الهواء. هذا هو قنديل أمّ هاشم المعلّق فوق المقام".

بعد كلّ تلك الأحتفالية النهارية، والأجواء القدسيّة التي ترين على الحيّ والبيت، يظهر قنديل أم هاشم وكأنّه روح حانية مشعّة، بعد أن يخلو الحيّ من الغرباء والزوار. لا يخلو تماماً، إذ سرعان ما يمتلئ ببشر جعلتهم الفاقة أشباحاً صفراً.

من هذا الجوّ المشبع بالذبول والإنهاك والصمت تصعد أصوات الباعة. وعلىالرغم مما في هذه الحومة من روح قدسية، إلاّ أنها لا تخلو من "أن يكون الكيل مدلّساً والميزان مغشوشاً. كله بالبركة". ثمّ بعد ذلك يشتدّ نداء الشحّاذين. "شابّة تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية:- يا للي تكسي الولية يا مسلم، ربنا ما يفضح لك ولية". "وهذا بائع الدقّة الأعمى الذي لا يبيعك إلاّ إذا بدأته بالسلام وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء". ثمّ تأتي بعد ذلك أصوات السكارى وهم يتعرّضون للمارّة بتعليقات لا تخلو من ظرف. تعود إسماعيل على هذه المشاهد فلم تعدْ تثير آهتمامه.

في المرحلة الثانية، نتعرّف على اسماعيل مراهقاً، بعد أن تعرفنا على أهمّ الترسّبات الدينية والثقافية في خلفيته الأولى. يمكن القول إنّ المرحلة الأولى تمثّل الإعداد الذهني والنفسي كمنهج لحياته في المستقبل. أمّا المرحلة الثانية فتمثّل الجسد في أعلى درجات غليانه، لا سيّما إذا كان تفجّره الطبيعي محرماً. يقول راوية القصّة :"هو فريسة ممزّقة بين قوى دافعة، وأخرى جاذبة. يهرب من الناس ويكاد يجن لوحدته. بدأ يشعر بلذّة غريبة في أن يندسّ بين المترددات ولا سيّما وقت الزيارة.

ربما أدرك اسماعيل أنّ ثمّة منطقة رماديّة بين الحلال والحرام بين الأحتكاك بالملابس والاحتكاك العاري. تنمّرت عليه في هذه المرحلة حاسّة الشم. من خلالها كان يفرز حيوانيته، أو كما يقول راوية القصّة :"في وسط هذه الأجسام كان يشعر بلذّة المستحمّ في تيّار جارٍ لا يبالي نقاءَ الماء.. روائح العرق لا تكربه، بل يتشمّمها بخيشوم الكلاب. حتى النساء كنّ يفدن إلى هذا المقام لتقديم شمعة. انتقلت العدوى لدى اسماعيل من حاسّة الشمّ إلى حاسّة البصر حيث نعيمة السمراء الجعدة الشعر، الرقيقة الشفتين..."

بعد البنات السائبات، يأتي خليط من الرجال والنساء لأخذ شيء من زيت قنديل أمّ هاشم لعلاج عيونهم. يدعى الرجل الذي يدير هذه الحومة المزدحمة :دردیري، وهو "وسطهنّ كالديك بين الدجاج".وعلى الرغم مما يدره عليه عمله من رزق، إلاّ أنه لا تبدو عليه أيّة أمارة من أمارات الغنى. "الحقيقة إنه كان مزواجاً لا يمرّ العام إلاّ ويبني ببكر جديدة". مع ذلك كان مؤمناً إيماناً أعمى وخرافياً بكلّ ما يتعلّق ببركات قنديل أمّ هاشم.

أثّرت حرارة جسد اسماعيل على ذهنه فجاءت نتيجة الامتحان مثبطة، فقرّر والده إرساله إلى بريطانيا لدراسة طبّ العيون رغم ضائقته الاقتصادية. في الوقت نفسه اتفق الوالدان على أن تكون فاطمة النبوية من حقّه وهو من حقّها.

حين يقرأ اسماعيل الفاتحة إيذاناً بقبوله، وإنّه لكاذب...إذ أنكر أنّه جوعان إلى فتاته السمراء، إلى النساء جميعاً، ولا سيّما أخيراً إلى نساء أوروبا".

يبدو أنه حتى فاطمة النبوية تعرف أنّ " نساءأوروبا يسرنَ شبه عاريات، وكلّهنّ بارعات في الفتنة والإغراء. فإذا سافر اسماعيل فلا تدري كيف يعود إن عاد".

قبل وداعه ، "دار اسماعيل" حول المقام، فإذا بفتاته السمراء تلك تدعو وقد ألصقت جبينها على السور. عرف من دعائها أنّ رجلاً تركها، وأنّ جسدها أصبح ليس منها فما تشعر بالألم وهو ينهشها نهشاً. حاول اسماعيل أن يلحقها إلاّ أنّ قدميه لم تتحركا. "أراد أنْ يُفضي لها بكلّ ما في نفسه...لماذا يهتزّ مرآها دون سائر النساء؟ أوَاهمٌ هو؟".

لم يجدْ اسماعيل مهرباً من حيرته هذه "إلاّ بالشيخ دردیري، وحديثه الثرثار ينزل بلسماً على فؤاده".

سافرت الباخرة بعد وداع ضاجّ دامع. " ومرّت سبع سنوات، وعادت الباخرة".

خلال هذه السنوات السبع حصل اسماعيل على شهادة طبّ العيون، وغوى وعربد وراقص. لكنّ الشئ الذي تعلّمه، ولم يخطر بباله أو بال عائلته أنّه "تعلّم كيف يتذوق جمال الطبيعة ويتمتّع بغروب الشمس -كأنّ لم يكن في وطنه غروب لا يقلّ عنه جمالاً- ويلتذّ بلسعة برد الشمال". إلاّ أنّ (ماري) زميلته في الدراسة هي التي صنعت منه إنساناً متحضّراً "ففتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال : في الفنّ، في الموسيقى، في الطبيعة، بل في الروح الإنسانيّة أيضاً".

كانت مفرداته الحضارية تتوسّع يوماً بعد يوم. فإن أراد أن يضع لحياته برنامجاً ثابتاً، تقول له : "الحياة ليست برنامجاً ثابتاً، بل مجادلة متجدّدة". وإذا قال لها لنجلس، تقول له :"قم نَسِر". لا يحدثها إلاّ عن الزواج ولا تحدّثه إلاّ عن الحب، وحين يسرح في المستقبل تعيده إلى الحاضر. يبحث في دينه وعبادته وتربيته وأصولها كمشجب، وهي تقول له : "إنْ مِنْ يلجأ إلى المشجب، يظلّ عمره أسيراً بجانبه يحرس معطفه".

لاحظت (ماري) في شخصية اسماعيل شتى أنواع النفاق والمجاملة، يتخوف من حكم الناس عليه. " التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منها ظافراً أو خاسراً ". أما هي " فتهيم بالناس جميعا، ولا تهتم بهم جميعا، التعارف عندها لقاء، والود متروك للمستقبل". ثم توالت نصائحها له حتى في ممارساته الطبية. تطلّب الامر من اسماعيل استحالات كثيرة حتى بلغ مستوى من التعليم علي يديها، لدرجة تمكّن معها أن يكون نداً لها بعد أن كان " يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب".

لكن حين تركته عن رضىً " وجد نفسه فريسة حبّ جديد" ألا وهو حبّ مصر الذي " لم يكن يشعر به إلا شعوراً مبهما ".

في الواقع ما من علاقة مباشرة بين الحبين، ولا يمكن أن يعوّض حبّ الوطن عن حبّ بشري يختلط بالانفاس واللحم والدم والصلب والرحم. يبدو أن راوية القصة لم يحسن تصوير الفراغ الذي خلفته (ماري) فأفاد من الوقت الفائض بين يديه بالتفكير في الوطن. لا عجب أن قال راوية القصة :" والظاهرة العجيبة التي لا استطيع تفسيرها هي أنّ اسماعيل أفاق من حبه لـ (ماري) فوجد نفسه فريسة حب جديد ، هل لأنّ القلب لا يعيش خاليا ؟ أم أنّ (ماري) هي التي نبهت غافلا في قلبه فاستيقظ وانتعش؟ "

الغرابة الثانية -وهي لا تخلو من ارتباك المؤلف- هو أن اسماعيل كلما ازداد حبه لمصر، زاد ضجره من المصريين " كان أبواه أول ضحايا ضجره. " فالام كتلة من طيبة سلبية" و " الأب مشتعل شيباً ". " البيت ضيق وأشد ظلمة " قطع الأثاث بالية.... حتى خطيبته فاطمة النبوية لم تسلم: " كل ما فيها وعليها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف. هل هذه هي الفتاة التي يتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده".

لا يمكن أن تتغير شخصية كشخصية اسماعيل القروية بعد سبع سنوات في الغربة، لا سيما وأن اعتماده اقتصادياً لم ينقطع في يوم ما. ربما أراد يحيى حقي بهذه الغرابات غير المعقولة أن يمهّد إلى ما سيقوم به اسماعيل من حماقات بشأن كسر قنديل أم هاشم، وهو بلا شك أمر جلل.

يندم لعودته إلى " هذا الوطن المنكود، يكسر قنديل أم هاشم ، يطبب عيني فاطمة النبوية بأدوية أوربا. تعمى بين يديه ولم ينفع معها كل دواء حديث".

يوازن الآن بين عقله الاوربي وقلبه الشرقي " راح يفكر كيف يهرب إلى أوربا من جديد، ولكنه في الليلة التالية يعدل عن فكرته". وفي شهر رمضان أحيت ليلة القدر فيه ماضيا جليلاً.

تنتهي القصة بصدفة مبهجة رغم لا معقوليتها. مبهجة لأن بطل القصة عانى الأمرين أمام أعيننا، كان خائبا أمام أعيننا، فلابدّ من إنقاذه بأية وسيلة حتى لو كانت صدفة لا علاقة لها بأي علم. من تلك الصدف مثلا، أنه سمع " زفيرا وشهيقاً يجوبان الميدان. هذا هو سيدي العتريس " . ثم إن المقام " يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه" كانت تلك شموع نعيمة " تلك الفتاة الطويلة السمراء، الجعدة الشعر ".

يأخذ اسماعيل شيئا من زيت القنديل، يقول لفاطمة لا تيأسي من الشفاء.

فاطمة " تتقدم للشفاء على يديه يوما بعد يوم".